ذكرى الأيام الماضية

قصة بقلم رشاد أبي شاور

الحرب

.. فجأة التهبت قريتنا ، حمى رهيبة من التوجس والاندهاش والخوف والاصرار زكمت جوها .

الحرب ، سمعوا بها لكنهم لم يعانوها . بعضهم اشترك في الثورة ضد الانكليز ، لكن الثورة ليست حربا . تفسير الحرب عندهم انتصار أو هزيمة . الانتصار معناه البقاء في الوطن وطرد اليهود ، الهزيمة معناها العكس .

المحراث توقف عن معانقة الارض . الثور يجتر محراثه مرتاحا دون أن يكون مطالبا بجر المحراث. نساء القرية مندهشات ، الحرب.. لماذا ؟ ما الداعي .. هه ، ألا يكفي اليهود انهم عاشوا بيننا ؟ لكن الرجال فكروا بأسلوب آخر فيه جدية وأصرار وحماس . من يملك مالا اشترى بندقية وبضع طلقات ، من لا يملك باع بقرته أو جمله أو ثوره واشترى بندقية .

قال أبو علي لزوجته :

ـ ارتفع سعر السلاح .

أجابته المرأة :

ـ ما الذي تعنيه ؟

أجابها بحزم :

ـ يجب أن أشتري بندقية ، قريتنا مهددة بالسقوط .. هه ..

ردت ببرود قاتل :

ـ لن تغير (بارودتك) سوء المصير .

بكراهية رجل يحتقر ضعف تفكير امرأة :

ـ أنت غبية .. وسافل من يستشير امرأة في الامور الجدية .

ـ هل .. هل ستبيع الثور وأدوات الحراث ؟

ـ أبيعك أنت اذا اقتضى الامر ، من أجل الحصول على بندقية .. لن أكون أضحوكة في عيون الرجال .. هه ، أنا أبو علي.

مر بيده على شاربه الكث وابتسم ، ثم تمتم :

ـ بندقية .. مثل بندقيتي أيام الثورة ، لكن العدو تغير هذه المرة . الانكليز لعنة الله عليهم . اليوم موعدنا مع اليهود .

ملامح وجهه غامضة . المرأة تبكي ، لا يعرف لماذا . لف سيكارة ثم خرج .

الايام السعيدة

التصق الرجل بامرأته حين نام الصغار . همس لها بضع كلمات مزروعة بأمل ريفي أيامه شقية :

ـ هه .. ام علي . حين يكبر علي ويصير استاذا سنرتاح من هم الحراث والحصاد .

سبحت اصبعها في شعر رأسه الكثيف :

ـ لا غنى لنا عن الارض .

تنهد الرجل ، أغمض عينيه ، ورأى كل حبة تراب ورثها عن والده ، تلك الارض المروية بالعرق والجهد . مدرسة القرية الابتدائية لا تحقق طموح الرجل . يجب أن يتعلم علي في القدس ، لكن .. المال ، من أين يأتي به ؟ أنت لا تملك غير الارض . حتى الارض ليست ملكك . انها وديعة انتقلت من جدك الى أبيك وأنت ترعاها الآن . أنت ترضع ثديها وتشبع بطون أفراد الاسرة بخيراتها .

لكزته المرأة بكوعها :

ـ هل نمت ؟

ـ لا ، لم أنم . أفكر .

ـ بماذا تفكر ؟

ـ بمستقبل علي .

ضحكت بافتخار امرأة تعتز بابنها :

ـ .. ما زال صغيرا .

ـ بلى ، ولكن يجب أن أعلمه ليصبح أستاذا .

ـ يكفي أن (يفك) المكتوب .

ـ لا أريده أن يعيش مثل الثور . لا يعرف غير جر المحراث واجترار الطعام .

ـ ليس معنا مال لنرسله الى المدينة .

انفجرت قنبلة .

ـ سنبيع الارض .

هوت الكلمات على صدرها مدى رهيبة تمزق عروقها وجسدها.

ارتفع صوتها فجأة ، بعد أن نفضت اللحاف عنهما :

ـ لا ، لن أدعك تفعل هذا .

نظر اليها بحقد :

ـ لن أعيش لارى ابني جاهلا . انه ذكي في المدرسة ، وهو الآن في الصف الرابع . بعد عام سأرسله الى القدس ليواصل تعليمه .

عنيدة أم علي . رفضت أن تنام مع زوجها . تمزق ضميرها ، تريد أن ترى ابنها معلما ، وترفض أن تبيع الارض في سبيل ذلك الهدف . ايه ، انها ذكرى بعيدة ، حلم تمزق حين أعلنت الحرب .

الجنود

تمزقت الغيوم السوداء ، لم يعد للخوف مكان ، الانباء تقول ان المعركة لصالح العرب . لم تسقط بعد أية قرية أو مدينة في أيدي اليهود . زاد التفاؤل حين دخلت الجيوش . قرية (الاربعين بئرا) تتحرر الآن من شبح القلق . انطلقت زغاريد النسوة ، دوت العيارات النارية . ذبحت الاغنام لاعلان البهجة بقدوم الجنود .

. . . . .

وقف الاستاذ في الصف . أرسل نظراته الحزينة عبر النافذة . أدار وجهه صوب التلاميذ ، ومن حلق يابس أخرج كلمات متألمة :

ـ انها الحرب .. أيها الصغار .. أيها الشباب . عودوا الى منازلكم . المدرسة من الآن فصاعدا ستكون مقرا للجيش والمجاهدين . أما أنا فسأعود الى قريتي لانضم لاخواني هناك . أرجو أن أراكم بخير بعد نهاية الحرب .

شد الاستاذ على أيديهم واحدا واحدا ثم احتضن عليا وضمه الى صدره :

ـ كنت أتوسم فيك الخير ، كان يجب أن تصبح أستاذا ، لكن...

سالت دمعات على الوجه المتعب . انصرف التلاميذ بصمت . تقدم الضابط من الاستاذ :

ـ نحن نشكرك يا أستاذ . لم نكن نود اخراجكم من الصف .. لكن .. أنت تعرف ، انها الحرب .

الاوامر

قال الضابط للمختار :

ـ اسمع يا مختار .. بلغ جميع الرجال أن يكونوا على أهبة الاستعداد ، سنبدأ غدا في تدريبهم .

بخبرة رجل يعرف كيف يتعامل مع رجال الحكومة ، أجابه المختار :

ـ نحن تحت الاوامر ، سنلبي ما تريدونه ، وعشاؤك عندنا الليلة.

فرك المختار يديه مبتسما . بدهاء ماكر أجابه الضابط :

ـ لا داعي لتكليفك ، ليس هناك من ينوب عنك .. أقصد .. يعني ..

ـ لا ، سأحظى آنا أولا بشرف اكرامك .. وبعدئذ تنظم الامور .. أطلقا معا ضحكة تبارك الفهم السريع .

. . . . .

أبو علي يتنكب بندقيته . يشق الفجر بجسده القوي . ضغط بيده على كعب البندقية :

ـ في مثل هذا الوقت كنت أصطحب الثور متجها الى أرضي ، والآن هاانذا أتجه آلى الطابور .. هه .. هل نحن بحاجة للتدريب ؟ لقد واجهنا الانكليز بلا تدريب وبقليل من العتاد .

تجمع الرجال بجوار المسجد عند البيادر . كانت البيادر تبدو مثل صدر عريض لانثى نفضت عنها ملابسها استعدادا لارضاع وليدها.

سأل أبو علي نفسه :

ـ هل سنجني موسم الحصاد هذا العام ؟

لاذ بالصمت لانه لا يعرف ما يخفيه الغيب .

اصطف الرجال ، اشرأبت أعناقهم عندما وقف الضابط بوجه صارم ، مرسلا نظرات متوعدة متفحصة ، شد صوته المتوعد انتباههم :

ـ اسمعوا .. عليكم بتنفيذ هذه الاوامر .. و .. من ناحية طعام الجنود سنتدبر الامر معكم لان المؤونة لن تكفينا .. ها ..

مال أبو علي برأسه على جاره :

ـ ألا يكفينا ما نحن فيه .. لن نقدر على اطعام أسرنا .. هه .. على رأي المثل : « جئنا بالاقرع يؤنسنا ... » .

مشهد شبه مسرحي

(حدث هذا الحوار حين اجتمع رجال القرية لدراسة الوضع الدفاعي ، بعد أن بدأت القرى المجاورة تسقط واحدة بعد الاخرى ، رغم وجود الجيوش) .

أبو علي ـ لقد بدأت القرى تسقط في يد اليهود ، وقريتنا في خطر ، علينا أن ننظم دفاعنا مع القرى الاخرى .

المختار ـ (وهو يتحسس كرشه) اسمع يا أبو علي ، نحن نستمد اوامرنا من الضباط ، ثم لا علاقة لنا بالقرى المجاورة .

ابو علي ـ لكن يا مختار .. اذا سقطت القرى المجاورة ، معنى ذلك هلاكنا وضياع قريتنا .

المختار ـ كلام .. كلام فارغ .. ثم لم نعرف بعد رأي (سيدنا) الضابط . انه يمثل الجيوش العربية .

الضابط ـ أشكرك يا مختار .. الاوامر صريحة واضحة .. نحن جئنا هنا للدفاع عن قريتكم فقط ، ولن نتحرك من اماكننا ابدا .

أبو علي ـ لقد دافعنا عن قريتنا وعن القرى الاخرى قبل مجيء الجيوش ، ثم الاوامر ليست لصالحنا .

الضابط ـ يا كلب .. يا جاسوس .. انت جاسوس لليهود .. انت موقوف .

سرت همهمة استنكار بين الرجال .. لكنهم رأوا أن الوضع رهيب ، جرروا اجسامهم المهزومة خارج القرية للقيام بنوبة الحراسة الليلية ، احتجز الجنود بندقية أبي علي ، وأحكموا عليه باب الغرفة .

. . . . .

الليل خيمة سوداء رهيبة يعشش فيها القلق والتوجس . العيون تحدق في الظلام والاصابع على الازندة . مزق الصمت صوت انبثق فجاة ، من الناحية الشمالية :

ـ من .. من ؟

أجيب الصوت بزخات طلقات نارية ، قفز أحد الرجال بين الحقول حتى وصل المدرسة . كان الجنود نياما والضابط غير موجود.

ـ أين الضابط ؟.. أنتم تنامون والقرية تتعرض لهجوم عنيف .

أجابه جندي نعس :

ـ الضابط ... في بيت .. المختار .

ثم عاد الى فراشه .

صرخ الرجل به في حزم : « افتح هذه الغرفة » . وبلا وعي انصاع الجندي للامر ، وفتح الباب ، فقفز أبو علي من الداخل صارخا : أين بندقيتي ؟

أعطاه الجندي البندقية ... أصوات العيارات النارية تصم الآذان .

. . . . .

في الفجر ، كانت القرية كلها قد خرجت لوداع الشهيد الاول (أبو علي) .. دفن الرجل في مقبرة القرية الى جوار والده وجده .

ملاحظة : سقطت القرية سنة ٤٨ بعد استبسال .. أم علي تسكن في مخيم (جباليا) . ابنها يعمل معلما . اشترى علي بندقية ، وحين سألته أمه : لم اشتريتها ؟ أجاب : لاني سأحتاجها ذات يوم .. ذات يوم .

عمان — رشاد ابي شاور

بعد النجاح العظيم الذي لقيه قاموس « المورد » تفخر دار العلم للملايين بأن تقدم الى الطلاب ومدرسي اللغة الانكليزية في المدارس الابتدائية والتكميلية :

المورد القريب

قاموس جيب إنكليزي - عربي

تأليف

منير البعلبكي

٤٦٤ صفحة — ٣ ليرات فقط